المنطقة بعد نظام صدام وأولويات المرحلة القادمة...(3/3)

26-4-2003

فعلى الحركات الإسلامية في المرحلة القادمة العمل على تعزيز دور المجتمع الأهلي وانخراطه في المؤسسات المدنية والطوعية، والوصول الى إنجاح دور هذه المؤسسات في التعبير عن مطالب واحتياجات الناس ومساعدة الشعوب في بناء الحياة السياسية والثقافية والاقتصادية

بقلم محمد سليمان

ثالثا/ أولويات المرحلة القادمة:

إذا انتقلنا من الحديث عن المشروع الأمريكي وأهدافه وآلياته، والسيناريوهات الإقليمية المتوقعة، ومدى إمكانية نجاح المشروع الأمريكي، إلى نقاش المرحلة القادمة والتحديات المستقبلية التي تواجه المجتمعات والشعوب العربية والإسلامية وبالتحديد شعوب المشرق العربي التي تواجه مباشرة المشروع الصهيوني الامريكي الامبريالي، وتقف وجها لوجه أمام الأطماع الاستعمارية العدوانية وعجز واحتضار النظام الرسمي العربي، وعدم قدرته على توفير أدنى درجات الأمن الحياتي والاقتصادي لا داخليا ولا خارجيا لمواطنيه.

وإذا كان الخطاب في هذا الجزء من المقال يتجه الى الحركات الاسلامية ، فذلك لأن هذه الحركات أصبحت تمثل -بلا نقاش- أبرز تعبيرات الحس والرأي العام الإسلامي في هذه المرحلة، ولأنها المعنية بالدرجة الأولى في مواجهة استحقاقات النضال ضد الاستعمار الصهيوني- الأمريكي، ولأنّ مخاطبة الأنظمة العربية لا تسمن ولا تغني من جوع، وهي الآن لا تفكر إلاّ بسلامة رأسها من الطوفان القادم سواء من الداخل أو من الخارج.

وتناول أولويات المرحلة القادمة لا بد أن يكون مشروطاً بعدة أمور: قراءة اللحظة التاريخية الحالية قراءة عميقة، ودراسة الحالة الحضارية والسياسية للأمة بشكل منهجي، وإدراك محددات الواقع الذي تنطلق منه هذه الحركات بعيداً عن لغة الشعارات والهتافات إلى لغة عملية مبنية على الاحتمالية والمرحلية. في ضوء هذه القواعد فإن من الواضح أن الحركات والمجتمعات الإسلامية تواجه اليوم ثلاثة أنواع من التحديات الرئيسة الاستراتيجية، وهي:

1. التحدي الاستعماري المتمثل باحتلال العراق وفلسطين.

2. التحدي الوطني: السلطة، الدين والمجتمعات.

3. التحدي الداخلي: الشروط الذاتية لمواجهة المرحلة القادمة...

وبناءً على هذه التحديات يمكن القول انّ أولويات المرحلة القادمة تتمثل في القيام بالمهمات التالية:

1.المقاومة والجهاد:

يعد احتلال القوات الأمريكية للعراق بمثابة التمهيد المباشر لإنزال المشروع الأمريكي الكامل وصولا إلى الهيمنة على المنطقة، وإجهاض كل مشاريع التحرر العربية، ومحاولات الاستقلال والنهضة، ويأتي احتلال بغداد اليوم -وهي من أعرق وأغنى وأكثر العواصم العربية تأهيلا لدور استراتيجي مستقبلي- بالإضافة إلى احتلال القدس –وما لها من قيمة دينية وتاريخية- ليضع أمام الحركات الإسلامية مهمة نضالية وجهادية تاريخية لا يكمن النقاش في أولويتها وأهميتها، وخاصة الحركة الإسلامية في العراق وفي فلسطين.

وتأتي هذه المهمة في مرحلة حرجة تقف النظم والحكومات العربية بين مؤيدة للمشروع الأمريكي ومناورة في تنفيذ الواجبات المطلوبة منها أمريكيا وبين عاجزة لا تملك إلاّ الحياد أو التنازلات، وهذا يعني مزيداً من التضييق على الحركات الإسلامية والحصار لها، وقد بدأت عدة حركات تبحث في كيفية مواجهة البيئة الإقليمية الجديدة، خاصة تلك الحركات التي كانت تتخذ من دمشق وبيروت مكاتب رئيسة وداعمة لها، وسيزيد التضييق على المصادر المادية والتعبوية والتربوية –كما هو الحال في الحديث عن المناهج ومصادر التمويل السعودية، والمناهج اليمينة والباكستانية،..- إذاً هذه البيئة الإقليمية الجديدة تحمل مزيدا من الحصار والتضييق على الحركات الإسلامية.ومن ذلك الترتيبات الجديدة في فلسطين، وتقاعد ياسر عرفات وتشكيل حكومة أبو مازن والتي بين لها الأمريكان أن قمع الانتفاضة ومطاردة المجاهدين من أولويات عملها في الشهور الثلاث القادمة.

هذه المتغيرات الجديدة في المنطقة لا بد أن تدرس جيدا ويتم بناء مناهج وآليات التعامل معها، وأبرز خطوات المرحلة القادمة في مواجهة هذا التهديد هو إشغاله واستنزافه في الأرض التي نزل فيها، أي العراق وفلسطين، وهذه المهمة إن كانت أولوية القيام بها تقع على عاتق المجاهدين في العراق وفلسطين من الحركات الإسلامية، فإن على الحركات الإسلامية الأخرى العمل على تقديم كل أشكال الدعم المالي والمعنوي والإعلامي والسياسي لهذا الجهاد لإطالة أمده ودفعه باتجاه استنزاف وإشغال العدو.

وهذا يتطلب من الحركات الإسلامية في العراق وفلسطين وفي الدول الداعمة الأخرى، الأخذ بمباديء وقواعد تتجنب استنزاف الذات والعمل الآني اليومي وتتطلع الى العمل الجهادي الاستراتيجي والاقتصاد في الجهد والتضحية في سبيل وضع تصورات بعيدة المدى تكفل روحاً مناضلة ذات نفس طويل تمتلك القدرة على الصبر والتحمل.

كما أنّ الجهاد في العراق وفلسطين لا يجوز أن يقتصر على الجانب العسكري، وإنما لا بد أن يمتد الى الجانب السياسي والإعلامي والقدرة على بناء خطاب حضاري يقدم الجهاد في إطار دعائي وثقافي وتربوي، يكفل الموازاة بين الواجب الجهادي وبين واجب بناء المجتمعات الأهلية والمدنية والمؤسسات المختلفة التي تسند هذا المشروع في كافة مجالات الحياة، والعمل على تخفيف الألم والمعاناة عن المدنيين والشعب قدر الإمكان من خلال إبعادهم عن ساحة النضال العسكري إلى ساحة النضال السياسي والثقافي والاجتماعي. فلا يوجد أي مصلحة أو مبرر من [التلذذ بلعب دور الضحية] وتعريض المدنيين الذين لا يحملون ولا يمتلكون السلاح إلى أعتى أنواع الأسلحة والدبابات، لماذا يقف الطفل الفلسطيني معه حجر ليواجه الدبابة! ويفقد يده أو قدمة أو عينه! لماذا نستنزف المخزون الاستراتجي من طاقتنا لغايات إعلامية لا تسمن ولا تغني من جوع، فعسكرة الانتفاضة لا بد ان تكون في ضوء رؤية تحفظ قدر الإمكان الإنسان الفلسطيني أو العراقي، ولا تدخله في مواجهات محسومة سلفاً. لابد ان نتقن كافة أشكال الجهاد والنضال، وأن نأخذ بمنطق "الثغرة" في مواجهة الاحتلال، وبالتالي نتجنب أن نجد أمامنا غداً عشرات الألاف من الأطفال الفلسطينيين قد فقدوا جزءاً من حياتهم بفقدانهم أعضائهم، في مواجهة لا طائل تحتها سوى التعبير عن نفس قصير في رؤية الصراع مع الاستعمار.انتهت المرحلة السابقة، وبدأت مرحلة جديدة من مواجهة الاستعمار تحتاج منا الى بناء المقاومة على أسس جديدة تتناسب مع صراع مرحلي طويل الأمد.

وعلى الحركات الإسلامية الأخرى توفير كل أنواع الجهود المطلوبة لدفع راية الجهاد إلى الأمام، إعلامياً: التعريف بالمقاومة ودورها، وبعملياتها، حشد التأييد الشعبي حولها، التعريف بجرائم العدو وانتهاكاته لحقوق الإنسان، العمل على بقاء تعريف الوجود الأمريكي في العراق والصهيوني في فلسطين على أنه وجود احتلال،...، معنويا: التواصل الاجتماعي والنفسي معهم، وإيجاد وسائل للتعبير عن الدعم الإسلامي والشعبي العربي لهذا الجهاد من خلال المهرجانات والمسيرات، والندوات، والكتابات، ومقاطعة

المنتجات والمشروع الأمريكي، وتفعيل جهود مقاومة التطبيع، ومحاولة بناء منابر إعلامية عالمية للجهاد، والتعريف بقضيته العادلة، او استغلال المنابر الموجودة بشكل مكثف وفعال،..، مادياً: من خلال الدعم المالي والاقتصادي للمجتمعات والمجاهدين، وإيجاد برامج تتبنى ذلك مثل رعاية أسرة فلسطينية، واستثمار الفتاوى الشرعية بهذا الخصوص، ثقافياً: من خلال القصة والأدب والشعر والكتابات التي تبني وتؤسس منهجيا لثقافة المقاومة والنضال، والتي تتعامل مع احتياجات الإنسان الفلسطيني والعراقي الثقافية للاستمرار والتصعيد في المقاومة والنضال،...

إن الواجب السابق من قبل الحركات الإسلامية داخل وخارج العراق وفلسطين لا يمكن أن يؤتي ثماره إلاّ من خلال "مأسسة العمل" وبرمجته وجعله في أطر منهجية وليس فزعات مرتجلة، و العمل بمبدأ تقاسم الأدوار، ويتطلب أيضاً التعاون والتناصر مع كافة القوى السياسية الأخرى في المجتمعات الرافضة للمشروع الأمريكي والصهيوني. ولعل مواجهة هذا التحدي الاستعماري والعمل على مشاغلته واستنزافه، هو الكفيل بتعزيز سيناريو المقاومة والنضال في العراق وفلسطين، والذي ستكون له أثار كبيرة على الشعوب العربية والإسلامية، وسيعزز من حالة اليقظة الشعبية، وسيفتح أفاقاً كبيرة لإسقاط الاحتلال في ذات المناطق التي ولج إليها.

وإذا كانت الظروف التي تعيشها المنطقة صعبة ومحفوفة بالتهديدات، فإنّ الحركات الإسلامية تمتلك رصيداً حضاريا وأخلاقيا ودينيا يكفل لها الجانب الروحي والمعنوي في القتال والتحرير، كما أنّ وجود الاحتلال المباشر يعتبر بمثابة المهماز الذي يشعل الغضب والثورة الشعبية الدائمة، وتبقى الحركات الإسلامية تمتلك -في النهاية- الأرض والشعوب والتراث والحق، وقبل ذلك الدين في موقع الصراع من أجل التحرير.

2. الوحدة والتنسيق:

يرى د. محمد الأحمري[1][1] أنّ مواجهة المشروع الصهيوني والأمريكي لا يمكن أن تحقق النجاح المطلوب في ضوء العزلة والقطيعة الحالية بين القوى السياسية الموجودة في العالم العربي والإسلامي، فالمواجهة في حقيقتها مواجهة عالمية وليست محلية، وطبيعة المشروع الماسوني والصهيوني والقوى العظمى المتحالفة معهما هي طبيعة عالمية تستوجب مشروعا فوق قطري للتصدي لها، وهنا يقع على عاتق الحركات الإسلامية واجب بناء حوار فعال جوهري وليس شكلياً فيما بينها -في كافة الأقطار المعنية وخاصة الداخلة والقريبة من ساحة الصراع في الشرق الأوسط- وصولا إلى تحديد أجندة المرحلة القادمة من العمل السياسي والشعبي والثقافي، وتحديد آليات العمل، ويرى الأحمري أن على الإسلاميين التعاون والتنسيق بشكل كبير مع القوى السياسية الأخرى في المنطقة التي تقف معهم في نفس الخندق.

هذه الوحدة التي يدعو اليها الأحمري لابد أن تكون في أولوية الحركات الإسلامية وان تبدأ العمل على الاتفاق على برنامج لمواجهة المرحلة القادمة عبر عدة أقطار عربية وعبورا من خلال كافة ألوان القوى السياسية الرافضة للمشروع الأمريكي-الصهيوني، وهذا بدوره يستدعي استبعاد عوامل التشكيك والفرقة وتجاوزها، وتعظيم عوامل الاتفاق والقواسم المشتركة وتغليبها سعيا لبناء جبهة شعبية ممتدة تحمل ذات البرنامج وتنسق من خلال مؤسسات وفعاليات وتمتلك برامج متنوعة ومتكاملة ومنهجية لمواجهة التهديد الخارجي ولرفع سوية العمل الأهلي والشعبي، وفي ذات الوقت للضغط على الأنظمة باتجاه عدم الانهيار والإذعان للشروط الأمريكية التي تعمل على بسط الهيمنة على المنطقة.

3. بناء المجتمع الأهلي وتعزيز حضور ودور المدني:

1[1] رئيس مجلس أمناء التجمع الإسلامي لأمريكا الشمالية، حوار خاص معه.

شهد العقد الأخير من القرن الماضي ازدهاراً كبيراً في ثورة المعلومات والاتصالات، وتراجعاً كبيراً في دور الدولة وسلطتها في كافة مناحي الحياة وتعاظم دور المجتمعات الأهلية والمحلية والقطاعات الخاصة في شتى مجالات الحياة. هذه التحولات تفتح مجالاً واسعاً لحيوية المجتمعات المدنية ودور المجتمع الأهلي في صنع مستقبله بعيداً عن استبداد أية سلطة، وهو مرحلة تعتبر مناسبة لتحرير الأمة من هيمنة الدولة –على حد تعبير رفيق حبيب- وصولاً إلى إطلاق طاقاتها الكامنة والمعطلة.

ولعل أبرز الدروس والعبر التي يمكن أن نأخذها من الحرب الأخيرة هي خطورة إفقار وإفراغ مؤسسات المجتمع المدني من الطاقات والإبداعات المختلفة، وضرورة العمل على تعزيز هذه المؤسسات التي تبيّن أنها صمام الأمان للمجتمع وللشعوب في فترات المحن والأزمات، وهي القادرة على العمل دوما في كل الحالات من خلال توظيف العمل الشعبي وبرمجته ضمن أطر ومؤسسات وآليات، كما أنّ الضرورة المتبينة من خلال الحرب تنبيء عن خطورة احتكار فئة أو حزب مهما كانت أيدلوجيته لهذه المؤسسات لأنها ستتحول عندئذ لتصبح مجالاً للوصولية والفساد والسرقة، فتعدد الأراء والاجتهادات مع وجود مباديء العمل هو الذي يكفل نجاح هذه المؤسسات وقوتها المطلوبة.

فعلى الحركات الإسلامية في المرحلة القادمة العمل على تعزيز دور المجتمع الأهلي وانخراطه في المؤسسات المدنية والطوعية، والوصول الى إنجاح دور هذه المؤسسات في التعبير عن مطالب واحتياجات الناس ومساعدة الشعوب في بناء الحياة السياسية والثقافية والاقتصادية وفق أسس جديدة تكون أقرب الى الاستقلال وعدم الاعتماد على الدولة في تأمين الكثير من المتطلبات، بما يكفل في المحصلة تحقيق دعوة برهان غليون بتأسيس عقد اجتماعي عربي جديد للحياة السياسية، وفي هذه الحالة ستكون مؤسسات المجتمع المدني والأهلي بمثابة مقدمة حقيقية لتغيير سياسي سلمي في العالم العربي وبناء ثقافة سياسية مدنية جديدة تؤمن بالبناء والنضال والإصلاح لا الهدم والاتهام والتشكيك.[2][2]

هذه الأولوية يرى الباحث إبراهيم غرايبة[3][3] أنّها تشكل عموداً فقرياً لمواجهة المرحلة القادمة حيث يرى أنّ تقوية وتأهيل المجتمع المدني ليقوم بالعديد من المهمات ليس على حساب الدولة ودورها وإنما بالموازاة معها لا بد أن تكون من أولويات القوى السياسية للمرحلة القادمة، لكن دور المجتمع المدني –كما يرى غرايبة- لا يجب أن ينتهي عند حدود المؤسسات السياسية والمهنية، وإنما لا بد أن يمتد إلى المؤسسات التنموية والاقتصادية والتربوية لتشكيل مجتمع حقيقي قائم بذاته يمتلك عناصر القوة الذاتية، أو ما يسميه هو بالـ"مجتمع المنتج" وهي دعوة تقترب كثيرا مع دعوة الفضل شلق ببناء الدولة والمجتمع المنتج التي تهتم بتلبية احتياجات المواطنين الاقتصادية[4][4] وتكفل لهم حياة صحية تؤهل الإنسان لتجاوز دور الخمول والانتظار إلى دور العمل والبناء، وهذا يتطلب إعادة الاعتبار إلى العديد من الجوانب الاقتصادية المهملة من الحرف والزراعة والانتاج الوطني والقدرة على تلبية الحاجات الوطنية الأساسية محلياً. إنّ جوهر المطالبة السابقة يصب في قيام الحركات الإسلامية بالمساهمة بتعزيز دور المجتمع الأهلي على كافة المستويات: السياسية، المهنية، التنموية/الاقتصادية، التربوية..الخ.

2[2] انظر: برهان غليون، الحاجة لعقد وطني يؤسس لاجتماعنا السياسي والمدني، 4/2/2002 ،www.aljazeera.net، وانظر نفس الكاتب، نفس الموقع، نهاية الحقبة الوطنية العربية، 12/8/2002.

3[3] كاتب وباحث أردني، حوار خاص معه.

4[4] الفضل شلق، الدولة السياسية والدولة الاقتصادية، كيف نستفيد من تجربة دول أسيا الشرقية، مجلة الاجتهاد، ع 55+56، صيف وخريف 2002، ص 10.

ويرى غرايبة أنّ هذه المهمة تتطلب تعزيز دور وحضور الفلسفة في العملية التربوية والتعليمية، الفلسفة القائمة على إيجاد التصورات المعرفية والفكرية التي تدعم الدور الحضاري المطلوب للمجتمعات.

4. واقع الحركات الإسلامية و الكادر الاستراتيجي:

المرحلة الحالية تستدعي قيام الحركات الإسلامية بمراجعة شاملة وجوهرية لوضعها ودورها، وحالتها الداخلية ودراسة مواطن الخلل والقوة دراسة نقدية من خلال التساؤل حول شروط قدرتها على مواجهة التحديات والتهديدات التي تعصف بالأمة والشعوب والمجتمعات.

ودون الدخول الى جوهر العملية النقدية المطلوبة، او الولوج الى الحديث عن واقع الحركات الإسلامية اليوم، فمن الواضح أنّ هذه الحركات بحاجة إلى هذه الرؤية والمراجعة والعمل على بناء العوامل الذاتية المطلوبة، وإلاّ فإنها ستكون صيداً سهلا إما للمشروع الأمريكي أو للنظم التسلطية بالوكالة، وإما لسلوك ارتجالي غير مدروس يورطها في مأزق تحملها خسائر وفشل في مرحلة تحولات خطيرة.

ولا تقف جوانب التهديدات والتحديات اليوم في الصراع السياسي وأحياناً العسكري والأمني مع النظم والسلطات الحاكمة في العالم العربي –كما كان سابقاً- وإنما تمتد التحديات لتشمل الجوانب الحضارية والاجتماعية والثقافية، فإذا كان المشروع الأمريكي مدعوم بقوة عسكرية وهيمنة سياسية ومؤسسات اقتصادية دولية كبرى، فإنّ الجانب الأخطر في المشروع هو ليس هذه القوة وإنما الثقافي، كما يرى عدد من المنظرين الغربيين أمثال هانتنجتون وجوزيف ناي وبريجينسكي.[5][5] حيث يفرق ناي بين القوة العسكرية والسياسية hard power، والقوة الثقافية "النموذج الأمريكي" [6]soft power[6]؛ وهي القوة التي تتسلل إلى ثقافة الشعوب العربية، وتكسب عددا كبيرا من الأنصار، خاصة في حالة نجاح النظام الشرق أوسطي والأجندة الأمريكية، والتي تتطلب ثقافة خاصة ليبرالية وقيم غربية وأخلاق متلائمة مع مجتمع السوق والاستهلاك..، بل إنّ الإدارة الأمريكية في المرحلة القادمة ستولي اهتماما أكبر بالتغيير الثقافي والاجتماعي، من خلال مؤسسات ثقافية واجتماعية بعناوين المجتمع المدني ومراكز حقوق الإنسان، العمل التطوعي والخيري، في عملية اختراق ثقافية واجتماعية مدروسة.[7][7] ومن الملاحظ أن هناك فئات متزايدة داخل الطبقات الاجتماعية يحصل عندها عملية "تبدل ثقافي" في السنوات الأخيرة.

إذاً من المجالات التي تبدو حيوية في المواجهة القادمة هي المجالات الاجتماعية والثقافية، فالاختراق الثقافي يمثل عامل تهديد كبير للمشروع الإسلامي، خاصة أنه يعبر الشعوب والمجتمعات وهي الأرض التي يتحرك عليها ومن خلالها مشروع وفاعلية الحركة الإسلامية، والعولمة ليست مفهوما محايدا وإنما مثقلة ومكتنزة بالقيم والثقافة الغربية، بات من الصعب عدم بناء رؤية استراتيجية للتعامل مع تجلياتها وتغلغلها في العالم العربي، وهنا أمام الحركات الإسلامية قضية اساسية وهي إعادة تقييم الرصيد الاجتماعي في ضوء رصد وتحليل الحراك الاجتماعي والثقافي بشكل أعمق، خاصة مع

5[5] Samuael p..Huntington, the Clash of Civilization, Touchstone, New York, 1997. انظر كذلك: بريجينسكي، الفوضى ، الدار الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، 1998.

6[6] Joseph Nye, Redefining the National interest Joseph Nye, Redefining the National interest, Foreign Affairs, July/ August 1999, p 24

.

7[7] انظر: محمد سليمان، الحركات الإسلامية بعد ضربة العراق، مرجع سابق.

تأثير المتغيرات السياسية والاقتصادية الجديدة، ووضع تصورات لتطوير مؤسسات إعلامية وثقافية ودعوية لنشر الثقافة الإسلامية بعناصرها المتنوعة، وذلك في إطار مواجهة هذه الجوانب من المشروع الأمريكي.

كما تتطلب إعادة النظر في وضع الحركات الإسلامية ودورها العمل على بناء ما يسميه إبراهيم عجوة بـ"الكادر الاستراتيجي"[8][8]، ليس فقط داخل الحركات الإسلامية وإنما داخل القوى السياسية الشعبية الأخرى، هذا الكادر الذي يمتلك الثقافة والقدرة على التعامل مع متغيرات المرحلة ويمتلك النفس الاستراتيجي الطويل المطلوب في عملية الصراع السياسي والثقافي في المنطقة.

للعودة للأعلى

8[8] أمين سر فتح الانتفاضة في الأردن، حوار خاص معه.